

التباين الثقافي

في رحلة ابن فضلان

♦ صفوان ناصيف النّذاف (*)

الترجمة عن الروسية: هدى علي التميمي
مراجعة النصّ العربيّ وتوثيقه: د. حسن عبد راضي

المقدمة

يحلّل هذا المقال رحلة أحمد بن فضلان سنة 921 للميلاد إلى بلاد السّلاف / البلغار (دولة تتارستان حالياً، في روسيا)، ويتتبّع تطوّر أبعادها الثقافيّة في تمثيل صورة حضارة أخرى. مثلّ ابن فضلان، الرّحالة المسلم، دور عالم الأنثروبولوجيا هنا، كونه ممثلاً لثقافة مختلفة، ولنظام فئات مختلف، ولعنصر نفسيّ وحضاريّ مغاير، يحمل خصائص التباين الثقافيّ عن البلدان التي زارها. تعكس هذه الدّراسة المكوّن النفسيّ والبيئة الإسلاميّة الثقافيّة لابن فضلان - الثقافة التي أصبحت معياره الأساسيّ للمقارنة والمقايسة.

تعتمد العلاقات مع المجتمعات الأخرى على خلق مقارنات لحظيّة ومدروسة بشكل أعمق من وجهة نظر الثقافة العربيّة الإسلاميّة. وصف الرّحالة عادات الشّعوب التي كان يلاقيها خلال الرّحلة، وكتب انطباعاته عمّا رآه، الأمر الذي أفصح عن اختلافات كبيرة بين الثقافة العربيّة الإسلاميّة وثقافات الشّعوب السّلافيّة (بلغار نهر الفولغا) والأتراك والخزر في القرن العاشر للميلاد. وهكذا، يكشف هذا المقال عن الصّورة القارّة في أذهان العرب المسلمين عن الشّعوب والحضارات الأخرى في العصور الوسطى، كما يبحث في خصوصيّات تفكير العرب المسلمين وفي آرائهم عن الشّعوب الأخرى. كلّ هذا يساعدنا في فهم أفضل لعلم النّفس التّاريخيّ للعرب.

(*) جامعة قازان الحكوميّة / روسيا كان وأستاذاً في قسم التّاريخ - كليّة الآداب بجامعة دمشق.

الخارجي والروحاني. ارتقى الإسلام، على الرغم من تراجع النفوذ السياسي في القرن العاشر للميلاد. وهذا يفسر العدد الكبير من الوفود التي توافدت إلى بغداد لإقامة علاقات مريحة وتحالفات قوية وإظهار الولاء. نتقهم دوافع وصول وفد من السلاف/ البلغار الذين عاشوا في أوروبا على ضفاف نهر الفولغا (إتل) (كانت عاصمتهم غير بعيدة عن قازان الحديثة في تترستان)، وطلبوا المساعدة والدعم من الخليفة المقتدر بالله (توفي عام 932 م) في المجالين السياسي والديني.

وصلت بعثة ملك السلاف/ البلغار إلى بغداد لسؤال الخليفة المقتدر بالله أن يرسل وفداً ويعلم شعبه الدين الإسلامي، والمساعدة في بناء المساجد والحصون للحماية من الأعداء المجاورين. يقول ابن فضلان في رسالته عن هذه المهمة: (لما وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله، يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ويبنى له مسجداً، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سأل من ذلك)⁽¹⁾.

ويشير أندريه ميغيل إلى الهدف الحقيقي من الرحلة: «لقد كانت الغاية من الرحلة نشر الدين الإسلامي وترسيخه بين البلغار الذين لم يتبعوا إلا على نحو سطحي قواعد الإسلام، ولتعزيز الإيمان وتهذيب المجتمع على مبادئ الشريعة الإسلامية.

(1) «رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة»، تحقيق د. سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، ط1، 1959: ص 67-68. وقد رأينا أن نعود إلى نصوص الرسالة نفسها التي اقتبسها الكاتب من الترجمة الروسية خيراً من إعادة ترجمتها إلى العربية.

ولرحلة ابن فضلان أهمية خاصة، فلا شك أنها تلقي الضوء على المدة «المظلمة» في تاريخ بعض الشعوب، على سبيل المثال، شعوب روسيا أثناء المدة التي بدأت فيها بالتعرف على المسيحية، بينما بقي جزء من السكان وثنيين، ومحافظين على التقاليد القديمة. وقد قدم ابن فضلان، كما أشارت كراشكوفسكيا، لنا صورة حيّة للوضع السياسي في العالم الإسلامي، والعلاقات بين هذه الدول والدول المجاورة لها في آسيا الوسطى، وفي المناطق الداخلية النائية أيضاً، كتلك التي تقع قريباً من حوض نهر الفولغا. وتكمن أهميتها في التفرد الخاص للموضوعات الإثنوغرافية، وأنها تخلق صوراً فريدة لكثير من القبائل التركية البرية التي تعيش في آسيا الوسطى والشعوب الأخرى التي لعبت دوراً خاصاً في تاريخ أوروبا الشرقية، مثل البلغار والروس.

لقد ذكر المستشرق الألماني فغاين في مقدمة كتابه السطور الآتية عن ابن فضلان بلغته الأم: «أهمل الغرب روسيا، وتحدث عنها العرب. لقد ألقوا كثيراً من الضوء على تاريخ الغرب القديم وقدموا معلومات مفقودة، لاسيما عن بلغاريا وروسيا في حقبة بعيدة». وتحدث المستشرق أندريه ميغيل عن أهمية رحلة ابن فضلان لتاريخ روسيا: «جمع في رحلته كثيراً من الأشياء النادرة عن أمة خفية وبعيدة». يمكننا أن نقول إن ابن فضلان كتب وثيقة استثنائية لا تتعلق فقط بالبلغار، بل أيضاً بالخوارزميين والغزنية، فضلاً عن الروس والخزر، على الرغم من أن العمل ركز كثيراً على البلغار أو الصقالبة، كما يسميهم ابن فضلان.

ارتبطت هذه الرحلة منذ البداية بالمهمة السياسية السامية للخلافة العباسية في بغداد، التي احتفظت بسلطانها العظيمة في العالم

ولكن نحن أيضاً نعتقد أن السياسة والاقتصاد تدخلًا في هذه القضية؛ لأنها تضمّنت أيضاً حماية المصالح في مجال التجارة على نطاق واسع، وإبعاد الخزر عن الملاحقة، الذين كانوا يقعون أسفل ضفة نهر إتل (القولغا) مباشرة، وسدّ الطريق بين شرق روسيا والعالم الإسلامي». تقرّر إرسال وفد إلى ملك السلاف يضم أربعة أشخاص: سوسن الرّسّي، وتكين التركي، وبارس الصّقلابي ورئيس الوفد أحمد بن فضلان يرافقهم سفراء السّلاف، ليرشدوهم إلى الطريق. كما ضمّ فقهاء ومعلمين وخدماء لمرافقة الوفد وشخصياته الثانوية. وقد حملوا معهم الأدوية بناءً على طلب قيصر السّلاف، الأمر الذي يدلّ على تفوق العالم الإسلامي وثروته الحضارية.

في الحادي والعشرين من حزيران سنة 921م انطلق وفد بغداد في قافلة مؤلفة من خمسة آلاف رجل وثلاثة آلاف دابة⁽²⁾. صعدوا أولاً شرقاً، ثمّ شمالاً، عابرين الجبل ومناطق همذان فالرّي بالقرب من طهران الحديثة، عبر نهر أمور داريا⁽³⁾ إلى بخارى السابقة كثيرة السهوب والوديان، بعد أن واجهوا شدائد كثيرة في الطريق، حتّى وصلوا إلى نهر القولغا وملك السّلاف، وصلوا إلى وجهتهم

(2) يرد ذكر هذا العدد من النّاس والدّوابّ في حديث ابن فضلان عن مُجريات رحلته في أرض الغزّيّة، وهم قومٌ من التّرك، حين اعترض رجل منهم «رثّ الهيّة، دميم المنظر، خسيس المخبر» القافلة المؤلّفة من خمسة آلاف رجل وثلاثة آلاف دابة، ولم يسمح لهم بالمرور حتّى أعطوه خبزاً، تُنظر: رسالة ابن فضلان - مصدر سابق: ص 98-99.

(3) أمور داريا نهر آسيويّ يبلغ طوله 2,525 كيلومتراً، عُرف قديماً باسم «أوكسوس» وسماه العرب «جبحون»، يتكوّن من التقاء نهري فخش وباندج اللّذين ينبعان من جبال بامير في آسيا الوسطى، عبره الفاتح قتيبة بن مسلم بجيشه إبان الفتوحات الإسلاميّة.

في يوم الأحد الثاني عشر من أيّار عام 922 للميلاد (في الوقت الحاضر هذا التاريخ في تارستان هو يوم عطلة دينيّة). لقد ذهب ابن فضلان في رحلة، تاركاً وراءه بلداً غنياً متحضراً يتمتّع بمكانة عالية في العالم و يتميز بثقافته الرّاقية وأسلوبه الحضاريّ في الحياة. وفي السّياق نفسه، لم يكن ثمة استعلاء عرقيّ، حيث كان هناك في الواقع أعراق وأمم مختلفة، يوحدّها الإيمان بدين إسلاميّ واحد. وكانت نتيجة ذلك الطّهارة الخارجيّة والداخليّة، فقد كان لزاماً أن يسبق الوضوء كلّ الصلوات الخمس، كما يلزم الغسل التّام بعد الجُماع. وتوجد القواعد الصّارمة والمفهومة نفسها في مجال الرّواج والميراث، وتقديس الوالدين، ودور الأمّ في المجتمع، وقضايا العفّة والتّواضع، واحترام قيم الأسرة، واحترام صفات مثل الكرم، والرّجولة، والشّجاعة، وقبول الحقيقة والتّكافل الاجتماعيّ.

حمل ابن فضلان رسالة ثقافيّة معيّنة وعلى الرّغم من أن هذه النّقافة أنكرت المركزيّة العرقيّة، إلا أنّ مظاهرها يمكن العثور عليها لدى الأمم كافّة في احتفاظها بنوع من المركزيّة، التي يمكن تسميتها دينيّة وروحيّة. يعدّ الإسلام - حسب اعتقادات المسلمين - الدّين الحقّ، وهو دين كامل الأصول يقدّم تصوّراً شاملاً لمجمل القضايا الإلهيّة.

كانت هناك مظاهر مختلفة للإسلام، كلّ منها كان جزءاً من حقيقة رويّة أو دينيّة. هذه الحقائق في الإسلام باتت معتدّاً بها على أنّها كاملة وتنتمي إلى العائلة الرّويّة التي تنتمي إليها الديانتان المسيحيّة واليهوديّة، كما ورد ذكر أنبياء اليهوديّة والمسيحيّة في الكتب المقدّسة الثلاثة. إذ سُمّي أتباع الديانتين السّماويّتين السّابقتين «أهل الكتاب» على الرّغم من أنّ أتباع المسيحيّة المعاصرين يُنظر إليهم على أنّهم بعيدون عن

التعاليم الأصلية للمسيحية واليهودية، والإسلام دين تقوم عقيدته على التوحيد. لكنّ المسلمين لا يزالون يعتقدون أنّ ممثلي الديانتين الأخرين هم الذين ألهموا «الكتاب المقدس»، لذلك عدّوا انتقال بعض الشعوب الأوروبية إلى المسيحية مظهراً من مظاهر الرّوحانيات والتّقدّم، وهذا ما ميّزهم من الشعوب الأخرى التي ما تزال وثنيّة - «عبدة النّار» أو «الكفار».

نظر ابن فضلان إلى حياة النّاس الآخرين استناداً إلى الانطباعات الأساسيّة للحضارة والرّفاهية، الموجودة في مدينته وبلده، التي تُصنّف على أنّها الأعلى بالقياس إلى أوضاع الشعوب المختلفة. ففي بعض الأحيان قلّل من أهميّة «حضارة» الشعوب التي كان يلتقي بها، متفاجئاً ومندهشاً، منطلقاً، على نحو طبيعيّ، من التّصوّر الثّقافيّ العربيّ الإسلاميّ، الذي نشأ عليه منذ الولادة.

قدّم سفير بغداد وصفاً مفصّلاً للبلغار والرّوس والخوارزميين والأتراك والبجناك⁽⁴⁾ والباشغرد⁽⁵⁾. في وصفه الإثنوغرافيّ لقبائل الغزيرة المملوكيّة التركيّة، وأعرب عن تعاطفه مع دينهم، ووصف عيشهم في الخيام، (وإذا هم بادية، لهم بيوت شَعْر، يحلّون ويرتحلون، ترى منهم الأبيات في مكان، ومثلها في مكان آخر، على عمل البادية وتنقلهم، وإذا هم في شقاء، وهم مع ذلك كالحمير الضّالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون

(4) من القبائل التي كان يتألّف منها شعب الخزر والمناطق المتاخمة، يصف ابن فضلان أفرادها بأنهم سمر شديدو السّمة، حليقو اللّحي فقراء. تُنظر رسالة ابن فضلان: ص106.

(5) الباشغرد، أو الباشكورتس من الشعوب التي تستوطن الأراضي الرّوسيّة على جانبيّ جبال الأورال، وما زالوا يشكّلون واحدة من الأقلّيّات النّاطقة بالتركيّة في تلك المنطقة.

شيئاً، بل يسمّون كبراءهم أرباباً، فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له: يا رب أيش أعمل في كذا وكذا؟ «وأمرهم شورى بينهم» غير أنّهم متى اتّفقوا على شيء وعزموا عليه، جاء أرذلهم وأحسّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه. وسمعتهم يقولون: «لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله» تقرّباً بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين لا اعتقاداً لذلك⁽⁶⁾.

لم يفته أن يلاحظ جوانب أخرى من الحياة الاجتماعيّة لتلك الحقبة، كلّ ما يتعلق بالعلاقات مع النّساء، وعادات الجنازة. يذكر أنّهم لا يُولون عِفّة المرأة وسترها لعوراتها اهتماماً كبيراً، ذات مرّة جلس وفدُ بغداد عند أحد الرّجال، وكانت امرأته جالسة معهم. (وبينا هي تحدّثنا إذ كشفت فرجها وحكّته ونحن ننظر إليها، فسترنا وجوهنا وقلنا «استغفر الله»، فضحك زوجها وقال للترجمان: تكشفه بحضرتكم وترونه وتصونه فلا يُوصّل إليه، خير من أن تستره وتُمكن منه. وليس يعرفون الرّنا، ومن ظهوروا منه على شيء من فعله شقّوه بنصفين ... ورسوم تزويجهم، وهو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه، ابنته أو اخته أو بعض من يملك أمره، على كذا وكذا ثوب خوارزميّ، فإذا وافقه حملها إليه، وربّما كان المهر جمالاً أو دوابّ أو غير ذلك⁽⁷⁾.

وإذا مات رجل وكانت له زوجة لها أطفال تزوّج الابن البكر امرأته بشرط ألا تكون أمه⁽⁸⁾. وكتب السّفير: (وأمر اللّواط عندهم عظيم جدّاً)⁽⁹⁾. وإذا مرض أحد الرّجال، يُنقل إلى خيمة منفصلة، ويُعزل حتى وفاته. وإذا كان فقيراً، يترك وحده في الصحراء. وإذا مات شخص ما، حفروا حفرة

(6) رسالة ابن فضلان - مصدر سابق: ص 92-91.

(7) المصدر السّابق: ص 92-94.

(8) يُنظر: المصدر نفسه: ص 94.

(9) المصدر نفسه: ص 96.

كبيرة له كأساس لمنزل، وألبسوه الملابس، وتركوا كل مذكراته وأشياء أخرى، وبراميل للتبئذ بجانبه، ودفنوه في هذا المنزل، وصنعوا قبة في الأعلى⁽¹⁰⁾. كما لاحظ أن الأتراك ينتفون لحاهم، ولا يُبقون سوى الشارب. يعبر ابن فضلان عن استيائه من هذه العادة قائلاً: (والترك كلهم ينتفون لحاهم إلا أسبلتهم، وربما رأيت الشيخ الهرم وقد نتف لحيته وترك شيئاً منها تحت ذقنه وعليه البوستين، فإذا رآه إنسانٌ من بعدٍ لم يشك أنه تيس)⁽¹¹⁾. ويقول عن قبيلة البجناك، وهي قبيلة تركية مملوكية طردها الأتراك: (وإذا هم ملقو اللحي فقراء، خلاف الغزية)⁽¹²⁾ ثم يتحدث عن قوم من الأتراك هم الباشغرد وقف الوفد ببلدهم، يقول: (فحذرناهم أشد الحذر، وذلك أنهم شر الأتراك وأقذرهم وأكثرهم إقداماً على القتل)⁽¹³⁾، يأكلون القمل، ويعبدون آلهة مختلفة: يعبد بعضهم حوالي اثني عشر إلهاً: إله الشتاء، إله الصيف، إله المطر، وما إلى ذلك. كان من بينهم مجموعة من الناس الذين يعبدون الأفاعي أو الأسماك⁽¹⁴⁾. وإن قال ابن فضلان: (تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً)⁽¹⁵⁾.

السلاف (البلغار)

تميز ابن فضلان بوصف إثنوغرافي دقيق وكامل لبلغار نهر الفولغا. ويبدو أنه لم يفوت لحظة واحدة تتعلق بحياتهم الشخصية والعامة: السلطة، والدين، والسلوك الاجتماعي، والشخصية،

والظروف والظواهر المناخية الغريبة التي تحدث في بيئتهم ونشاط الحياة. فكانت العقيدة الإسلامية السطحية أول ما لفتت نظر ابن فضلان عند وصوله إلى بلاد السلاف / البلغار. سمع من مآذن مساجد البلغار هذا الدعاء: (اللهم وأصلح الملك يلطوار، ملك بلغار). ولفت ابن فضلان نظر الملك محذراً: إن الله هو الملك ولا يُسمى على المنبر بهذا الاسم غيره. وذكر أن الخليفة المقتدر يدعى له من مآذن بغداد والشرق على هذا النحو: «اللهم اصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله». ثم صار الدعاء ملك البلغار من المآذن على هذا النحو: «اللهم اصلح عبدك جعفر بن عبد الله، أمير بلغار، مولى أمير المؤمنين»⁽¹⁶⁾.

ولم يكن ابن فضلان راضياً بنحو عام عن التمثيل السطحي للدين لدى البلغار، وغياب جوهر الإيمان في شخصياتهم وسلوكهم. ورأى أن لديهم موقفاً إيجابياً من نباح الكلاب، فابتهج به، لأنه علامة على الخير. يقولون لبعضهم: (سنة خصب وبركة وسلامة)⁽¹⁷⁾. وينكر عليهم عاداتهم عندما يأخذ الجد المولود أولاً بدلاً من الأب. فلجد الحق في تربية حفيده حتى يبلغ سن الرشد⁽¹⁸⁾. وإذا مات أحد الرجال، يصبح أخوه، وليس ابنه، خليفته. قال ابن فضلان: (فعرفتُ الملك أن هذا غير جائز، وعرفته كيف المواريث، حتى فهمها)⁽¹⁹⁾.

كما فوجئ السفير بأنه إذا أصاب البرق منزلاً، فلن يقتربوا منه، معتقدين أنها علامة سيئة فيتركون كل شيء فيه على حالته وجميع من فيه من رجل ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمان،

(10) يُنظر: المصدر السابق: ص 99.

(11) المصدر السابق: ص 100-101.

(12) المصدر السابق: ص 106.

(13) المصدر السابق: ص 107.

(14) يُنظر: المصدر السابق: ص 108-109.

(15) المصدر السابق: ص 109.

(16) تُنظر: رسالة ابن فضلان: ص 117-118.

(17) المصدر نفسه: ص 127.

(18) يُنظر: المصدر نفسه: ص 131.

(19) المصدر نفسه - ص 132.

الخروج من الحداد، وبعد ذلك يمكن لزوجة المتوفى أن تتزوج مرة ثانية. ولكن إذا مات أحد الأشخاص العاديين، فإنهم يؤدّون بعض هذه الطقوس فقط. ولا ينسى السفير الحديث عن المناخ والطقس الغريب والأشياء المتعلقة بهما. لاحظ ذلك بالنسبة لحلول الليل والنهار، المخالف لوقته المعتاد، إلى حدّ أنه كان مربكاً ومشوشاً لوقت القراءة والصلاة. كان اليوم طويلاً جداً. فبحسب الوقت من السنة يزداد طول النهار ويقصر الليل، أو العكس .

(وحدّثني الملك أنّ وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قومٌ يُقال لهم «ويسو»، الليل عندهم أقلّ من ساعة)⁽²⁴⁾، ويروي أنّه شاهد في السماء قطعاً من الغيوم كأنّ فيها أمثال البشر والدوابّ وفي أيديهم السيوف والرماح، وقطعاً أخرى فيها مثل ذلك، كأنّ حرباً قد نشبت بين الفريقين⁽²⁵⁾.

الروس

أثناء الرحلة إلى البلغار، زار ابن فضلان أيضاً الأراضي الروسية. كان ذلك، على الأرجح، في عهد الأمير فلاديمير، عندما بدأت المسيحية في هذه المنطقة بالانتشار.

ويرى مايكل كرايتون الكاتب الأمريكي، ومستشرقون غربيون آخرون، أنّ ابن فضلان لقي الروس / السلاف سگان أراضي روسيا الحديثة. لكنّ هؤلاء الروس كانوا كذلك قبائل اسكندنافية، لذلك ذكر كرايتون أنّ كتابات ابن فضلان كانت تسمّيهم «بلدان الشمال» أي سگان الشمال. وهذا يختلف عن رأينا نحن المستشرقين الروس، إذ نعتقد أنّ الحديث هنا عن القبائل الروسية الأصلية. فطرق وصف الروس في بحث ابن فضلان

ويقولون (هذا بيت مغضوب عليهم)⁽²⁰⁾.

وإذا قتل الرجل منهم الرجل عمداً أقادوه به، وإذا قتله خطأ صنعوا له صندوقاً من خشب الخذك وجعلوه في جوفه وسمّروه عليه وتركوه حتّى يبليه الزمان وتهبّ به الرياح⁽²¹⁾. وقد أولى ابن فضلان موضوع المرأة اهتماماً خاصاً، إذ رأى فيه ضعفاً في الالتزام بقواعد الدين الإسلامي وأعرافه خاصة. واستهجن استحمام الرجال والنساء في النهر عراة لا يختبئون من بعضهم. كتب: (وما زلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك)⁽²²⁾، ومن يرتكب فعل الزنا أياً كان يُعاقب بربط الذراعين والساقين بأربعة دبابيس، وبعد ذلك يُقطع بفأس من الرقبة إلى الساق، ويفعلون الشيء نفسه مع النساء⁽²³⁾.

كان ابن فضلان دقيقاً على نحو خاصّ في وصف عادات الدفن، ربّما لأنّها تختلف عن طريقة الدفن في الإسلام. فقد غسل البلغار الموتى حسب العادات الإسلامية، لكنهم لم يدفنوهم على الفور. فحاول جاهداً بالدرجة الأولى دفن الموتى في أسرع وقت ممكن. فتوضع الجثة على الأرض، ويرسم حولها، وتحفر حفرة داخل هذا المحيط، ثمّ يُصنع لحد ويُدفن في الحفرة. ولا تبكي النساء على الميت، بل يبكيه الرجال النبلاء (الأحرار)، أمّا العبيد فكان عليهم القدوم إليه بعد الجنازة وضرب جوانبهم بأحزمة جلدية، ووضع علامة على باب قبّة القبر وإحضار جميع أسلحة صاحبه. كان من المفترض أن يبكي على المتوفى مدّة عامين. وبعد هذه المدّة، يقوم الخدم بإزالة اللآفة وقصّ شعرهم معلنين

(20) المصدر نفسه.

(21) يُنظر: المصدر نفسه.

(22) رسالة ابن فضلان: ص 134.

(23) يُنظر: المصدر نفسه.

(24) المصدر نفسه: ص 126.

(25) يُنظر: المصدر نفسه: ص 123.

الشَّخصي لا تختلف عن الأساليب التي اتَّبعها في قِصَّة البلغار. ولا يقتصر على الوصف السَّطحي للجانب السَّياسي، فهو يعطي فهماً إثنوغرافياً عميقاً للحياة اليوميَّة والحياة الدِّينيَّة والاجتماعيَّة والثَّقافيَّة. وهناك لحظات تثير الدهشة والإعجاب والذَّهول والاستهجان، يصفها بدهشة: (لم أر أتمَّ أبداناً منهم كأنَّهم النَّخل، حمرٌ شقرٌ... ومع كلِّ واحد منهم فأس وسيف وسكِّين لا يفارقه جميع ما ذكرنا، وسيوفهم صفائح مشطَّبة إفرنجيَّة)⁽²⁶⁾. ويذكر ملاحظاته عن سلوكهم وعاداتهم مع نصيب من الدهشة. ورأى كيف ينزلون إلى نهر إتِل (القولغا) للتَّجارة، فهم (لا يلبسون القراطق ولا الخفَّاتين، لكن يلبس الرَّجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقَّيه، ويُخرَج إحدى يديه منه، ومن حدَّ ظُفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجرٍ وصور وغير ذلك. وكلَّ امرأة منهم فعلى ثديها حُقَّة مشدودة أماً من حديد أو من فضَّة أو نحاس أو ذهب، على قدر مال زوجها ومقداره)⁽²⁷⁾. (وأجلُّ الحليِّ عندهم الخرز الأخضر من الخرز الذي يكون على السِّفن)⁽²⁸⁾. أحياناً يُظهر ابن فضلان صدمته وذهوله من سلوكهم، بما في ذلك العلاقة بين الجنسين، إذ لا تُلتزم السَّرِّيَّة ولا العِفَّة، اللتان كانتا بلا شكَّ من المعايير المهمَّة في مجتمعه الثَّقافيِّ والدِّينيِّ، ولا ما يتعلَّق بطهارة الجسد الخارجِيَّة والداخليَّة التي اعتادها في البيئَة الإسلاميَّة. (ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقلُّ والأكثر، ولكلِّ واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الرُّوقة للتَّجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر

إليه....وربما يدخل التَّاجر عليهم ليشتري من بعضهم جاريةً فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتَّى يقضي أربه)⁽²⁹⁾. ويتعجَّب من استخفافهم بمفهوم «النَّظافة»، والتَّناقض مع مفهوم النَّظافة عند المسلمين: (وهم أقدر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جُنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطَّعام، بل هم كالحمير الضَّالَّة يجيئون من بلدهم فيُرسون سفنهم بإتِل وهو نهر كبير، ويبنون على شطِّه بيوتاً كباراً من الخشب)⁽³⁰⁾.

يصف باشمئزاز عاداتهم اليوميَّة في غسل رؤوسهم ووجوههم بالماء القذر: عندما تأتيهم الخادمة في الصِّباح الباكر بالماء في وعاء خشبي، تصبه على السَّيِّد حتَّى يتمكَّن من غسل يديه ووجهه، والشَّعر والرَّأس. ثمَّ ينفخ أنفه ويبصق في هذا الماء، وتحمل الخادمة الماء مع وعاء إلى الشَّخص التَّالي. وهكذا، حتَّى يغتسل كلُّ من في المنزل)⁽³¹⁾.

وأشار ابن فضلان إلى أنَّ دينهم مرتبط بنمط حياتهم واحتياجاتهم الاجتماعيَّة، ويلبِّي هذه الاحتياجات بالكامل. وساعة توافي سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كلُّ واحد منهم ومعه خبز ولحمٌ وبصل ونبيد، حتَّى يوافي خشبة منصوبة لها وجه إنسان وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال، قد نُصبت في الأرض فيوافي إلى الصُّورة الكبيرة، ويسجد لها، ثمَّ يقول لها «يا ربِّ قد جئتك من بلد بعيد ومعني من الجواري كذا وكذا رأساً، ومن السَّمور كذا وكذا جلدًا، حتَّى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثمَّ يقول:

(29) المصدر نفسه: ص 151.

(30) المصدر نفسه.

(31) يُنظر رسالة ابن فضلان: ص 152.

(26) رسالة ابن فضلان: ص 149.

(27) المصدر نفسه: ص 149 – 150.

(28) المصدر نفسه: ص 150.

معه على السريير أربعون جارية لفراشه، وربما وطئ الواحدة منهم بحضرة أصحابه الذين ذكرنا، ولا ينزل عن سريره، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قدموا له دابته فركبها منه، وإذا أراد النزول قدم دابته حتى يكون نزوله عليها، وله خليفة يسوس الجيوش ويواقع الأعداء ويخلفه في رعيته⁽³⁶⁾.

يعرض ابن فضلان في صفحات كتابه قصصاً طويلة، تركت لديه انطباعات متناقضاً لا يمحي. وبدا له الشذوذ الذي على ذلك النحو مبالغاً فيه، ولا يوجد ما يقارن به في ثقافته، لقد راعه ذلك. سمع أن الروس يؤدون طقوساً غريبة بعد موت أمرائهم فيحرقونهم مثلاً، وأراد أن يرى هذه العملية بأمر عينيه، فحضر دفن أحد النبلاء المشهورين. في وصفه، هناك مشاعر عميقة مما رآه في العمل الأسطوري، المرضي المهيب الذي يحدث أمامه مباشرة، لقد تلبسته الدهشة والتعاطف والحزن. عادة ما يضعون الرجل الفقير في قارب صغير ويضرمون النار فيه. أما الغني فيقسمون ماله على النحو التالي: ثلث لأقاربه، وثلث لعمل ملابس له، وثلث آخر يشتركون به خمرًا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتُدفن معه. أولاً: يُوضع الميت في القبر، حتى يخيطوا له الثوب ويسألوا المحظيات من ستموت معه؟ وعندما توافق إحداهن، يعينون جارتين أخريين لإعدادها لهذا الحدث النبيل، ويقضون هذا الوقت في شرب الخمر ليلاً ونهاراً، وربما يموت الواحد منهم في هذه الأثناء والكأس في يده.

وحين جاء يوم حرق الميت وسريته، اقترب ابن فضلان من النهر، حيث كانت السفينة، جاء

وجئتك بهذه الهدية، ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة⁽³²⁾. وإذا لم تكن تجارته ناجحة، فإنه يكرّر الطقوس نفسها، لكنه يقدم معاملة مختلفة. وهم أيضاً يجلبون الأضحية، شاة أو بقرة، فيذبحونها ويتركونها عند خشبة كبيرة وأخر صغار حولها، فيقولون إذا ظهرت الكلاب في الليل، وأكلت من ذلك قد قضى ربي حاجتي وأكل هديتي⁽³³⁾.

لفت ابن فضلان الانتباه إلى العقوبة التي يعاقبون به اللص في قوانينهم. (إذا أصابوا سارقاً أو لصاً جاءوا به إلى شجرة غليظة وشدوا في عنقه حبلاً وثيقاً، وعلقوه، ويبقى معلقاً حتى يتقطع من المكث بالرياح والأمطار)⁽³⁴⁾. (وإذا مرض ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه، بل لا يتعاهدونه في كل أيام مرضه، لا سيما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً، فإن برئ وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكاً تركوه على حاله حتى تأكله الكلاب وجوارح الطير)⁽³⁵⁾.

يرسم لنا ابن فضلان صوراً عديدة عن وحشيّتهم وحياتهم القاسية في الحروب المستمرة، وموقفهم السطحي تجاه قواعد الحشمة والعنف ضد المرأة. (ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمئة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده، فهم يموتون بموته ويُقتلون دونه، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه، وتصنع له ما يأكل ويشرب، وجارية أخرى يطؤها، وهؤلاء الأربعمئة يجلسون تحت سريره، وسريره عظيم مرصع بنفيس الجواهر، ويجلس

(32) يُنظر: المصدر نفسه: ص 153.

(33) المصدر نفسه: ص 154.

(34) المصدر نفسه: ص 155.

(35) المصدر نفسه: ص 154 - 155.

(36) رسالة ابن فضلان: ص 165 - 166.

الرّجال بسرير، وأخذوه إلى السّفينة ونشروا المساند الدّيباج الرّوميّ، إلخ. .. عليه .. وقامت امرأة مسنّة كانت تسمّى ملكة الموت، بنشر الأريكة على السرير، وبعد ذلك حملوا الميت من القبر إلى السّفينة، وألبسوه ثياباً جديدة، وأخذوه تحت القبة، ووضعوه على الوسائد. ووضع النّبذ والفاكهة والنباتات العطريّة في مكان قريب، وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه، وجاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، وأخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لهما في السّفينة، ثم جاؤوا ببقرتين فقطعهما أيضاً وألقوهما فيها ثم أحضروا ديكاً ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها، والجارية التي تريد أن تقتل جانيّة زاهية تدخل قبة قبة من قباهم فيجامعها صاحب القبة، ويقول لها قولي لمولاك: إنما فعلت هذا من محبتك⁽³⁷⁾. في هذه الحالة، تتلاشى العلاقة الحميمة المكرّسة للموت مع الرّغبة في البقاء إلى الأبد.

لم يتوقّف ابن فضلان أبداً عن إعطاء التّفاصيل: (فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة، جاؤوا بالجارية على شيء قد عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجليها على أكف الرّجال، وأشرفت على ذلك الملبن، وتكلّمت بكلام لها، فأنزلوها ثم أصددها ثانية، ففعلت كفعلها في المرّة الأولى، ثم أنزلوها وأصددها ثالثة....وقالت في أوّل مرّة أصددها: هو ذا أرى أبي وأمي، وقالت في الثّانية هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً، وقالت في الثّالثة: هو ذا أرى مولاي قاعداً في الجنّة⁽³⁸⁾. وهذا بدوره علامة جيّدة على انتقال سام من ضعف الحياة إلى حالة أبدية من الوجود في الجنّة

مع سيّدها. تم إحضارها إلى السّفينة، وجاء دور المرأة العجوز التي جسّدت الموت وتمثّل، كما يذكر ابن فضلان، دور حكيم وشامان مقدّس. تشمل واجباتها قتل المحظيّة ووضعها على متن سفينة «الموت» تعطي المحظيّة كأساً من النّبذ، وتأخذه الأخيرة وتشربه، ثم تذهب تحت الخيمة حيث يوجد سيّدها، ويدخلها أيضاً ستة رجال، ويجمعونها ويضعونها بجانب سيّدها. تربط المرأة العجوز عنق المحظيّة بحبل وتعطي طرفي الحبل للرّجال، الذين يسحبونها، ثم تغرس «ملكة الموت» خنجراً في ضلوعها حتّى تموت. ويضرب الرّجال في الخارج دروعهم لئلا يُسمع صوت صياحها فيجزع غيرها⁽³⁹⁾. كلّ هذا العمل غير العاديّ والمخيف ينتهي بإشعال أقارب المتوفّي السّفينة. ثم يأتي النّاس وفي يد كلّ منهم خشبة قد ألهب رأسها فيلقبها في ذلك الخشب فتأخذ النّار في الحطب، ثم بنوا على موضع السّفينة، وكانوا قد أخرجوها من النّهر، شبيها بالتلّ المدور، وصبوا في وسطه خشبة كبيرة، وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الرّوس وانصرفوا⁽⁴⁰⁾.

تدور هذه القصة حول ما رآه بأمّ عينيه في مراسم الدّفن عند الشّعوب الرّوسية القديمة والسّلاف، وقد لاحظ الرّحالة، كما جاء على لسانه، أنّها عادات متّبعة بين السّلاف والأتراك. ربّما جاءت هذه العادات مع البحّارة من الدّول الاسكندنافية، كما ذكر أنّ الآلات الموسيقية كانت موجودة في تقليد السّويديّين والسّلاف. لكنّ الموت القسريّ لامرأة متأصل لدى عدد من الدّول، على سبيل المثال، الإستونيّون، والأتراك، والمغول، والبلغار، والألمان، والسّلاف. كان دفن الموتى في

(39) تُنظر: رسالة ابن فضلان: ص 162.

(40) يُنظر: المصدر نفسه: ص 163-165.

(37) تُنظر: رسالة ابن فضلان: ص 155-160.

(38) يُنظر: المصدر نفسه: ص 160.

وضع الجلوس شائعاً في آسيا الوسطى، وكان دفن المتعلقات الشخصية معه شائعاً بين القبائل السلافية والبلغارية والتركية. ملكة الموت تشبه إلهة الموت هيل في القبائل الجرمانية (الاسكندنافية).
 اختلطت هذه القصص التفصيلية لابن فضلان بمشاعر المرارة والشفقة على كل ما كان يحدث أمامه مباشرة، وكذلك مشاعر الذهول. هنا، واجهنا أساسين ثقافيين، وحتى لو كانت هذه طقوساً، حسب ابن فضلان العلامة الفقيه المسلم، إلا أنها لم ترد بشكل صحيح، وفي جميع الأحوال فإنه لا يزال ينطلق من دوافع معقولة، واصفاً الأفعال المرئية. ولا ينسى أن يذكر هذه الاختلافات في القيم ومصادر المعرفة الأساسية، ويخبر القارئ كيف جرى الحوار التالي بينه وبين أحد الروس عبر مترجم أثناء مشاهدة السفينة تحترق. قال له الروسي: (أنتم يا معاشر العرب حمقى! فقلت: لِمَ ذلك؟ قال: إنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم، فتطرحونه في التراب، وتأكله التراب والهوام والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة، فيدخل الجنة من وقته وساعته. ثم ضحك ضحكاً مفرطاً، فسألت عن ذلك، فقال: من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعة). طبعاً مثل هذا الحوار لم يقرب بينهما ولم يزد التفاهم المتبادل بينهما. لكنّ الروسي كان سعيداً للغاية لظهور الله له، بينما كان ابن فضلان مندهشاً وحزيناً للغاية بسبب الحدث الذي لا يمكن تصوّره والذي يكسر القلب. رأى الأوّل في الحادثة جسراً للعبيد إلى اللانهاية، ورأى الثاني فيها سلطة قاهرة، جنباً إلى جنب مع ألم غير معقول ولا يصدق.

الخزر

بحلول وقت اجتماع ابن فضلان مع الخزر،

كان العرب بالفعل على دراية بهؤلاء القوم. ورداً على الإسلام وضغط العباسيين والضغوط المسيحية من بيزنطة، اختار الجزء الرئيس من المجتمع اليهودية ديناً. وفشلت المحاولات السياسية والتبشيرية البيزنطية لفرض المسيحية. تحوّل هذا البلد إلى اليهودية في عهد هارون الرشيد، واستمرّ في محاربة الإسلام مع بيزنطة حتى تفكك. لم يكن لدى العرب إجماع على أصل الخزر، فقد عدّهم بعض الباحثين العرب، بحسب معلومات عن أديانهم ومؤسّساتهم السياسية، مشابهين لشعوب الأتراك. أما ابن فضلان فينسب الخزر إلى الشعوب التركية، مع التركيز في وصفهم على الجوانب السياسية، وإيلاء اهتمام أكبر للحاكم وواجباته وتقاليده بدلاً من المعلومات حول الحياة اليومية للناس. أطلقوا على الحاكم الأعلى (خاقان)⁽⁴¹⁾ أو العظيم. فإنه لا يظهر إلا كل أربعة أشهر متنزهاً، ويقال له (خاقان الكبير). ويقال لخليفته (خاقان به)، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها ويدبر أمر المملكة ويقوم بها ويظهر ويغزو، وله تدعن الملوك الذين يصاقبون، ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعاً يظهر الإخبات والسكينة، ولا يدخل إلا حافياً وبیده حطب، فإذا سلّم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب، فإذا فرغ من الوقود، جلس مع الملك على سريره عن يمينه، ويخلفه رجل يقال له (كندر خاقان)، ويخلف هذا أيضاً رجل يُقال له (جاوشيغر)⁽⁴²⁾.

ورسم الملك الأكبر إذا مات أن تُبنى له دار كبيرة، فيها عشرون بيتاً، ويُحفر له في كل بيت منها قبر، وتُكسّر الحجارة حتى تصير مثل الكحل

(41) لفظ تركي معرب، وهو لقب لكل ملك من ملوك الترك.

(42) تُنظر: رسالة ابن فضلان: ص 169-170.

كانت هناك أيضاً مجتمعات من المسيحيين والوثنيين. أنشأ الخزر مجتمعاً تعدياً تحكمت فيه النخبة المكوّنة من اليهود.

تلقى ابن فضلان درساً ثقافياً ممتازاً في أثناء تجواله الطويل، عبّر عنه بالكلمات التالية: «أولاً، يعتقد الناس في مكان معيّن أنّ عاداتهم جيّدة بما فيه الكفاية، أفضل بكثير من عادات الدول الأخرى. ثانياً، يعتقدون أنّ أيّ غريب، رجلاً كان أو امرأة، هو أدنى منهم من أي ناحية، باستثناء الإنجاب»⁽⁴⁵⁾ (أي إن التكاثر هو الشائع بينهم فقط).

كان مقدراً لابن فضلان أن يروي لنا بكلماته كلّ ما رآه في بلاد السلاف والأترك والخزر (في جنوب روسيا الحديثة). إذ بملاحظاته، أتيحت لنا الفرصة لرؤية العالم بعيون عربيّ مسلم في العصور الوسطى. من ناحية، كان لدى ابن فضلان، المولود في بغداد، حاضرة العصور الوسطى، فكرة عن التنوّع الثقافيّ لمختلف المجتمعات البشريّة التي شكّلت دولة الخلافة الإسلاميّة. ومن ناحية أخرى، احتلّ موضوع الدين المكان الأهمّ في صورته للعالم، ممّا أثر في تكوين تقييم عامّ لمجتمع آخر من وجهة نظر الرؤيّة العربيّة الإسلاميّة. ركّز ابن فضلان على

(45) هذا الاقتباس لم يرد في «رسالة ابن فضلان» التي حقّقها الدكتور سامي الدهان علمياً على نسخة وحيدة في العالم، وإنّما استقاه الباحث من كتاب بالعنوان نفسه «رسالة ابن فضلان»، من جمع وترجمة وتقديم الدكتور حيدر محمّد غيبة، الشركة العالميّة للكتاب، بيروت، ط1، 1994، زواج فيه جامعُه ومترجمُه بين نصّ الرّحلة الأصليّ بقلم ابن فضلان وما ورد في رواية خياليّة بعنوان (أكلة الأموات) استلهم الرّوائيّ الأمريكيّ كريتون حبكتها وأجواءها من الرّحلة الأصليّة، وأضاف إليها من خياله كثيراً.

وتُفرش فيه، وتُطرح النّورة فوق ذلك، وتحت الدار نهر، والنّهر نهرٌ كبير، ويجعلون القبر فوق ذلك النّهر، ويقولون: «حتّى لا يصل إليه إنسان ولا شيطان ولا دود ولا هوام» وإذا دُفن ضُربت أعناق الذين يدفنونه حتّى لا يُدرى أين قبره من تلك البيوت... ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة، كلّ امرأة منهنّ ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه..... وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه، ويكون بينه وبين المواكب ميل، فلا يراه أحد من رعيّته إلا خرّ لوجهه ساجداً له لا يرفع رأسه حتّى يجوزه. ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوماً واحداً قتلت الرعيّة وخاصّته، وقالوا: هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه⁽⁴³⁾.

لفت ابن فضلان الانتباه إلى شجاعة جيش الخزر. (وإذا بعث سريّة لم تولّ الدُّبر بوجه ولا سبب، فإن انهزمت قُتل كلّ من ينصرف إليه منها، فأما القوادم وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم، فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون، وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم. وملك الخزر مدينة عظيمة على نهر إتل، وهي جانبان، في أحد الجانبين المسلمون، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يُقال له: خز، وهو مسلم، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التّجارات مردودة إلى ذلك الغلام، لا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره)⁽⁴⁴⁾.

(43) يُنظر: المصدر نفسه: ص 170-172.

(44) رسالة ابن فضلان: ص 172.

الأشياء التي كانت ذات أهمية خاصة في الإسلام، على سبيل المثال، الإيمان بالتوحيد، والكفر بالله (الوثنية)، وشعوب الديانات التوحيدية (الإسلام، والمسيحية، واليهودية)، ومراسم العبادة، والزواج، والطلاق، ومكانة المرأة، والأعراف. العلاقات الحميمة، والطقوس الجنائزية، مع عدم نسيان الجوانب الاجتماعية الأخرى من حياة الشعوب التي التقى بها.

المصادر والمراجع:

- «أعلام الجغرافيين العرب»، عبد الرحمن حميدة، دار الفكر للنشر، دمشق 1984.

- «تاريخ الأدب الجغرافي العربي»، أغناطيوس يولييانوفتش كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، الجزء الأول، القاهرة، 1957.

- «الجغرافيا عند العرب»، البشير صفر، دار الغرب

الإسلامي، بيروت، 1984.

- «الجغرافية والرحلات عند العرب»، نقولا زيادة، دار الأهلية للنشر، بيروت، 1962.

- «جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر»، أندريه ميكيل، الجزء الثاني، القسم الثاني، ترجمة إبراهيم الخوري، دمشق 1985.

- «الحضارة البيزنطية»، ستيفن رنسيان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961.

- «رسالة ابن فضلان»، أحمد بن فضلان بن عباس بن راشد بن حماد، تحقيق: سامي الدهان، مديرية إحياء التراث العربي، وزارة الثقافة، دمشق، ط2، 1978م.

- «رسالة ابن فضلان»، جمع وترجمة وتقديم الدكتور حيدر محمد غيبة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط1، 1994.

- «العرب والبرابرة المسلمون والحضارات الأخرى»، عزيز العظمة، دار الرئيس، لندن، 1991.